للسلام في الشرق الاوسط «صرعة»، ليس الا. فجريس ينطلق من تحليله للواقع العربي الراهن الرديء والمتراجع ليقول بلاجدوى الدعوة الى عقد المؤتمر الدولي. وفي استعراض مسهب، يقدم قراءة معادة ومكرورة للمؤتمرات واللقاءات الدولية، أو الاقليمية، التي عقدت من أجل حل الصراع العربي ـ الاسرائيلي، أو معالجة قضايا جانبية ذات علاقة بهذا الصراع، ليخلص الى ان المؤتمر الدولي ـ في حال انعقاده ـ سوف يشكل كارثة، لا محالة، على الشعب الفلسطيني. قد لا نختلف مع جريس في التعامل مع الحقيقة التاريخية المعروفة في ان تلك المؤتمرات واللقاءات كافة قد أسفرت عن نتائج مأساوية على الشعب الفلسطيني؛ ولكننا، مع ذلك، نختلف معه، بالتأكيد، في موضوعة محاكمة المستقبل بشروط الماضي التي نعرف. فاذا كانت تلك المؤتمرات مأساوية النتائج، فانها، بملاحظة بسيطة، انطلقت جميعاً من نقطة مشتركة واحدة: غياب أو، اذا شئنا الدقة، تغييب الطرف الفلسطيني، ومن ثم عقد الصفقة على حسابه.

كانت المؤتمرات تعقد، إذاً، تحت شعارات الاعداء التي تلبي مصالحهم المباشرة والمستقبلية، وفي ظل غياب فلسطيني، ليس عن هذه المؤتمرات ـ ومائدتها المستديرة فحسب ـ بل وكذلك عن الساحة المحلية والدولية، وفي غياب الحليف الفاعل والتأييد الدولي المتزايد النمو والتأثير، يوماً بعد يوم؛ بل وأهم من هذا كله، غياب اللسان الفلسطيني الفصيح الذي يملك ان يخاطب العالم بلغة سياسية لا تكتفي بالاستناد الى الحق التاريخي وعدالة القضية بقدر ما تتسلح بمنطقية توجهها على نحو يتيح لها ان تكون لغة مسموعة في أروقة العالم ودهاليزه.

واذا كان الصراع ـ كما نتفق مع الكاتب ـ عملية محكومة، اولاً وقبل أي شيء آخر، بموازين القوى المحلية والاقليمية والدولية، وان المؤتمرات ان هي الا توثيق قانوني لميزان القوى هذا، الا اننا، في الوقت ذاته، نختلف مع الكاتب اختلافاً استراتيجياً ونقول ان هذا الصراع، برداءة واقعه الراهن، هو صراع مفتوح يمكن الفعل فيه وتطوير ادواته والنهوض بها الى مشارف أقل سوداوية، ان لم نقل أكثر اشراقاً. مع موضوعة المؤتمر الدولي، فاننا بالتأكيد أمام نظرتين مختلفتين:

○ اعتبار المؤتمر الدولي وصفة ناجزة نحتكم من خلالها، وبأدوات الراهن الرديء، لنخلص الى وثائق وأحكام وحلول. ان هذه النظرة تتعامل مع موضوعة المؤتمر الدولي كما تتعامل مع قانون محدد، مثل القرار ٢٤٢ مثلاً، فترسم له حدوداً وتقيم تخوماً هي، اولاً واخيراً، قراءة سوداء ومتشائمة لما يريده الاعداء، وتسليم بهذه الارادة. وحين نستعرض تحليل جريس لواقع الساحة الفلسطينية، والعربية، والدولية، نخرج، دون جهد يذكر، بمحصلة هي: الصفر. صفر على الصعيد الفلسطيني، تقابله أصفار على الصعيدين، العربي والدولي. واذا كان الكاتب شديد التشاؤم من الواقع الفلسطيني، فهو حريص على ان يعكس هذه الاوضاع الفلسطينية، الرديئة من وجهة نظره، على وضع الاتحاد السوفياتي الذي نراه أكثر مأساوية من وضع م.ت.ف. على حد تعبير جريس.

○ النظرة الثانية، والتي تنطلق من اعتبار الدعوة الى عقد المؤتمر الدولي، هي توجه، اولاً وقبل كل شيء. صحيح اننا نريد، في النهاية، عنباً؛ ولكننا كي نحصل على العنب، نتنبه الى ان التوجه هو المهم. هل يتوجه العالم الى المؤتمر الدولي ام الى المفاوضات المباشرة ؟ هذا سؤال كبير، ولا يمكن الا ان نأخذه على محمل الجد. قد لا ينعقد المؤتمر غداً، أو بعد غد، وقد لا ينعقد في السنوات، أو العقد المقبل كله، الا اننا، مع ذلك، نجد ان جهدنا الفلسطيني والوطني العربي، متضافراً مع جهود كل الاصدقاء والحلفاء، يجب ان ينصب على ترسيخ هذه الدعوة لعقد المؤتمر الدولي؛ ترسيخها الى الحد الذي تصبح فيه اللغة الوحيدة المقبولة بين الاطراف الدولية عموماً وبين كل دولتين تلتقيان وتتحاوران وتصدران بياناً مشتركاً عن مباحثات قادتيهما.

المطلوب، بالضبط، ودون أوهام، أن يتحدث العالم لغتنا. ان يقتنع هذا العالم بلاجدوى المفاوضات المباشرة، بل واجحافها في حق الشعب الفلسطيني، وقبل ذلك وأهم منه، بلا فائدة هذه المفاوضات وعجزها عن تحقيق سلام عادل ودائم في منطقة شديدة الأهمية للسلام والأمن الدوليين.

نذهب الى المؤتمر الدولي ام لا نذهب ؟ هذا سؤال يضعه صبري جريس في ظل بقع السواد المنتشرة على خارطتنا العربية، فماذا يظل اذاً ؟